مادة التفسير

الدرس الرابع

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)

٣٤– فإذا جاءت النفخة الثانية التي تغمر كل شيء بهولها، وقامت القيامة.

الطَّامَّةُ الْكُبْرى هي القيامة، قاله ابن عباس والضحاك، وقال الحسن وابن عباس أيضا: النفخة الثانية

وسماها طامة لأنها داهية عظيمة تطم كل شيء سبقها ، واشتقاقها من قولك: طمّ الأمر إذا علا وغلب .

٣٥ – يوم تجيء يتذكر الإنسان ما قدم من عمل، خيرًا كان أو شرًّا.

أي ما يعمله في الدنيا يتذكره مكتوباً بكتاب، عنده يقرأه هو بنفسه قال الله تعالى: {ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً} [الإسراء: ١٣، ١٤] . فإذا قرأه تذكر ما سعى أي ما عمل، أما اليوم فإننا قد نسينا ما عملنا، عملنا أعمالاً كثيرة

منها الصالح، ومنها اللغو، ومنها السيىء، لكن كل هذا ننساه، وفي يوم القيامة يعرض علينا هذا في كتاب ويقال اقرأ كتابك أنت بنفسك {كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً} [الإسراء: ١٤] .

٣٦ – وجيء بجهنم وأظْهِرت عيانًا لمن يبصرها.

أظهرت تجيء تقاد بسبعين ألف زمام كل زمام فيه سبعون ألف ملك يجرونها ((١) أخرجه مسلم كتاب الجنة، باب جهنم (٢٨٤٢) (٢٩) .) ، إذا ألقي منها الظالمون مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً، فتنخلع القلوب ويشيب المولود .

٣٧ – فأما من تجاوز الحدّ في الضلال.

٣٨ – وفضل الحياة الدنيا الفانية على الحياة الأخرى الباقية.

هذان وصفان هما وصفا أهل النار، الطغيان وهو مجاوزة الحد، وإيثار الدنيا على الآخرة بتقديمها على الآخرة وهما متلازمتان فكل من طغى فقد آثر الحياة الدنيا وكذلك العكس، والطغيان مجاوزة الحد، وحد الإنسان مذكور في قوله تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات: ٥٦] .

٣٩ – فإن النار هي مستقرّه الَّذي يأوي إليه.

٤٠ – ٤١ – وأما من خاف قيامه بين يدي ربه، لأن الإنسان يوم القيامة سوف يقرره الله عز وجل بذنوبه حين يخلو به ويقول عملت كذا، عملت كذا، عملت كذا كما جاء في الصحيح، فإذا أقر قال الله

له: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم» ((١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: {ألا لعنة الله على الظالمين} (٢٤٤١) ومسلم كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله على المؤمنين (٢٧٦٨) (٥٢) .)

وكفّ نفسه عن اتباع ما تهواه مما حرّمه الله، والنفس أمَّارة بالسوء لا تأمر إلا بالشر. ولكن هناك نفس أخرى تقابلها وهي النفس المطمئنة؛ وللإنسان ثلاث نفوس: مطمئنة، وأمارة، ولوامة، وكلها في القرآن، أما المطمئنة ففي قوله تعالى: {يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي. وادخلي جنتي} [الفجر: ٢٧ - ٣٠] . وأما الأمَّارة بالسوء ففي قوله تعالى: {وما أبرىء نفسي إن النفس لأمَّارة بالسوء إلا ما رحم ربي} [يوسف: ٥٣] . وأما اللوامة ففي قوله تعالى: {لا أقسم بيوم القيامة. ولا أقسم بالنفس اللوامة} [القيامة: ١، ٢] .

والإنسان يحس بنفسه بهذه الأنفس؛ يرى في نفسه أحياناً نزعة خير يحب الخير ويفعله وهذه هي النفس المطمئنة، ويرى أحياناً في نفسه نزعة شر فيفعله وهذه النفس الأمارة بالسوء، وتأتي بعد ذلك النفس اللوامة التي تلومه على ما فعل فتجده يندم على ما فعل من المعصية، أو لوامة أخرى تلومه على ما فعل من الخير.

فإن الجنّة هي مستقرّه الَّذي يأوي إليه.

٤٢ - يسألك -أيها الرسول- هؤلاء المكذبون بالبعث: متى تقع الساعة؟

سؤال الناس عن الساعة ينقسم إلى قسمين: سؤال استبعاد وإنكار وهذا كفر كما سأل المشركون النبي صلى الله عليه وسلّم عن الساعة واستعجلوها، وقد قال الله عن هؤلاء: {يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق} . وسؤال عن الساعة يسأل متى الساعة ليستعد لها وهذا لا بأس به، وقد قال رجل للنبي عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله متى الساعة؟ قال له: «ماذا أعددت لها؟ قال: حب الله ورسوله. قال: «المرء مع من أحب» ((١)

أخرجه البخاري كتاب الأدب باب ما جاء في قول الرجل ويلك، (٦١٦٧) ومسلم كتاب البر باب المرء مع من أحب (٢٦٣٩) (١٦١))

قال الناصر: وفيه إشعار بثقل اليوم كقوله: وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا [الإنسان: ٢٧] ، ألا تراهم لا يستعملون الإرساء إلا فيما له ثقل، كمرسى السفينة وإرساء الجبال .

٤٣ – ليس لك علم بها حتَّى تذكرها لهم، وليس من شأنك ذلك، إنما شأنك الاستعداد لها.

وقد سأل جبريل عليه السلام وهو أعلم الملائكة، بوحي الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو أعلم البشر بذلك قال: أخبرني عن الساعة. فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» ((٢) أخرجه البخاري كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل (٥٠) ومسلم كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام (١) ..) ، **وإذا كان أعلم الملائكة وأعلم البشر لا يعلمان متى الساعة فما بالك بمن دونهما، وبهذا نعرف أن ما يشيعه بعض الناس من أن الساعة تكون في كذا وفي كذا وفي زمن**

معين كله كذب، نعلم أنه كذب؛ لأنه لا يعلم متى الساعة إلا الله عز وجل.

٤٤ – إلى ربك وحده مُنتهى علم الساعة.
٤٥ – إنما أنت منذر من يخشى الساعة؛ لأنه الَّذي ينتفع بإنذارك.
٤٦ – كأنهم يوم يرون الساعة مشاهدة، لم يلبثوا في حياتهم الدنيا إلا عشية يوم واحد أو بكرته ، وإضافة الضحى إلى العشية، لما بينهما من الملابسة، لاجتماعهما في يوم واحد.

العشية من الزوال إلى غروب الشمس، والضحى من طلوع الشمس إلى زوالها، يعني كأنهم لم يلبثوا إلا نصف يوم، وهذا هو الواقع لو سألنا الان كم مضى من السنوات علينا؟ هل نشعر الان بأنه سنوات أو كأنه يوم واحد؟ لا شك أنه كأنه يوم واحد. والإنسان الآن بين ثلاثة أشياء: يوم مضى فهذا قد فاته، ويوم مستقبل لا يدري أيدركه أو لا يدركه، ووقت حاضر هو المسؤول عنه، وأما ما مضى فقد فات وما فات فقد مات، هلك عنك الذي مضى، والمستقبل لا تدري أتدركه أم لا، والحاضر هو الذي أنت مسؤول عنه.

[مِنْ فَوَائِدِ الآيَاتِ]

- الخوف من الله وكفّ النفس عن الهوى من أسباب دخول الجنَّة.
- علم الساعة من الغيب الَّذي لا يعلمه إلا الله.
- بيان الله لتفاصيل خلق السماء والأرض.

عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ
يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦)
وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩)
فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي
صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ
بَرَرَةٍ (١٦)

سورة عبس

– مَكيّة–

[مِنْ مَقَاصِدِ السُّورَةِ]

حقيقة دعوة القرآن، وكرامة من ينتفع بها، وحقارة من يعرض عنها.

[التَّفْسِيرُ]

١ – قطّب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وجهه وأعرض.

٢ – لأجل مجيء عبد الله بن أم مكتوم يسترشد، وكان أعمى، جاء والرسول – صلى الله عليه وسلم – منشغل بأكابر المشركين أملًا في هدايتهم.

روى ابن جرير: وابن أبي حاتم: عن ابن عباس، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب، وكان يتصدى لهم كثيرا، ويحرص عليهم أن يؤمنوا،

فأقبل إليه رجل أعمى يقال له عبد الله بن أم مكتوم، يمشي وهو يناجيهم. فجعل عبد الله يستقرئ النبيّ صلى الله عليه وسلم آية من القرآن وقال:

يا رسول الله! علمني مما علمك الله. فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبس في وجهه وتولى وكره كلامه. وأقبل على الآخرين فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم نجواه، وأخذ ينقلب إلى أهله، أمسك الله بعض بصره وخفق برأسه ثم أنزل الله تعالى: عَبَسَ وَتَوَلَّى الآيات. فلما نزل فيه ما نزل، أكرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ما حاجتك؟ هل تريد من شيء؟ وإذا ذهب من عنده قال: هل لك حاجة في شيء؟

وهو مكيّ قرشي من المهاجرين الأولين.

يقول الشيخ ابن عثيمين :

كان النبي عليه الصلاة والسلام في عبوسه وتوليه يلاحظ هذين الأمرين. الأمر الأول: الرجاء في إسلام هؤلاء العظماء. والأمر الثاني: ألا يزدروا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في كونه يلتفت إلى هذا الرجل الأعمى الذي هو محتقر عندهم، ولا شك أن هذا اجتهاد من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وليس احتقاراً لابن أم مكتوم؛ لأننا نعلم أن النبي صلى الله عليه وسلّم لا يهمه إلا أن تنتشر دعوة

الحق بين عباد الله، وأن الناس عنده سواء بل من كان أشد إقبالاً على الإسلام فهو أحب إليه.

وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يستخلفه على المدنية في أكثر غزواته. وكان ابن خال خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها.

٣ – وما يُعْلِمُكَ –أيها الرسول– لعل هذا الأعمى يتطهر من ذنوبه؟!

٤ – أو يتعظ بما يسمع منك من المواعظ، فينتفع بها.

٥ – أما من استغنى بنفسه بما لديه من المال عن الإيمان بما جئت به.

٦ – فأنت تتعرَّض له، وتُقبل إليه.

٧ – وأي شيء يلحقك إذا لم يتطهر من ذنوبه بالتوبة إلى الله.

٨ – وأما من جاءك يسعى بحثًا عن الخير.

٩ – وهو يخشى ربه.

١٠ – فأنت تتشاغل عنه بغيره من أكابر المشركين.

١١ – ليس الأمر كذلك، إنما هي موعظة وتذكير لمن يقبل.

١٢ – فمن شاء أن يذكر الله ذكره، واتعظ بما في هذا القرآن.

١٣ – فهذا القرآن في صحف شريفة عند الملائكة.

١٤ – مرفوعة في مكان عال، مطهرة لا يصيبها دَنَس ولا رِجْس.

١٥ – وهي بأيدي رسل من الملائكة.

١٦ – كرام عند ربهم، كثيرى فعل الخير والطاعات.